



كانت توقعات الناس أن القيادة السورية مع أحداث درعا أن تقدم تنازلات، وهو جهل بالسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع، بسبب الجهل بطبيعة الأمراض الاجتماعية، ومن رأى مجلس (القروض) عفواً مجلس الشعب وكيف يصدق؟ لقال هل أنا في حلم أم علم؟

ولو اجتمع أهل درعا كلهم وليس بينهم طبيب واحد على مصاب باليرقان - أبو صفار. لما تقدّموا بحل معضلة مرضه إلا سقاماً، ولذا وجب تشريح بنية الديناصور السياسي في الغابة العربية...

يطرح (اتيين دي لا بواسييه 1530 – 1562) في مقالته عن (العبودية المختارة) هذا السؤال المُحير: (شيء واحد لا أدرى كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه وهو (الحرية) التي هي الخير الأعظم وضياعها تتبعه النكبات تُثراً وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه).

ولكن لماذا تسقط الأمم في قبضة الديكتاتورية؟ وكيف تصاب مجتمعات شتى بهذا المرض الخبيث في التاريخ بحيث يشترك في توصيفه كل من (الكواكب) و(لا بواسييه) بأفقي النعوت، أما الأول فيصف الاستبداد في كتابه (طائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) أنه لو كان رجلاً وأراد التعريف بنفسه لقال: (أنا الشر، وأبى الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذل، وابني الفقر، وابنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيري الجهالة).

أما (لا بواسييه) فيصف الديكتاتورية: (ما هذا يا ربى؟ كيف نسمى ذلك؟ أي رذيلة تعيسة أن نرى عدداً لا حصر لهم من الناس يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من عسكر أجنبى، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون. إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه. فأى مسخ من مسوخ الرذيلة هذه لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد كلمة تكفى قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعته، وتأبى اللغة تسميتها؟).

نحن نعرف من علم البيولوجيا أن الكائنات تمرض كما تنهار الدول وتنقرض الحضارات فلا تسمع لهم ركزاً.
ولكن ما المرض تحديداً وكيف يحدث؟

هل هو بسبب هجوم عنصر خارجي أم هو تعبير عن انهيار داخلي؟ هل هو أمر طبيعي أن تخسر الشعوب حريتها؟ يقول السياسيون: إنّ الطغيان يحصل بـ (تسلط الفرد) على الأمة بسلاح الخوف، ولا يفسرون لنا كيف يمكن لبشر فرد أن ينجح في بناء آلة رعب بحجم ديناصور لاحم.

ويرى المثقفون أنَّ (القوة) هي التي تقرر مصير الأمة، فلا يمكن (لعين أن تقاوم مخز ودبوس ومسمار)، ولا لعصفور أن يواجه مسدساً كما جاء في شعر القباني - رحمة الله -.

ولكن القرآن يعكس هذا المفهوم، فيلوم الضحية وليس الجلاد، وينفرد بمصطلح (ظلم النفس)، فما يقع للناس هو بما (كسبت أيديهم)، وما ربك بظلم للعبد، ويلوم (المثقف) الذي يجب أن (يبين) الأفكار للناس ولا يقعد في جيب الحاكم.

ويعتبر أنَّ (الأفكار) هي التي تغير المجتمع وليس تغيير الحكام، لأنَّ الطغيان سوف يستبدل بطغيان أشد، وعندما خسنا الحياة الراسدة وحكمنا السيف تغيرت سيوف كثيرة على رقابنا ولكن الحياة الراسدة لم تعدّ قط.

ولا يفرخ مجتمع طاغية إلا بالاستعداد الخفي، ولا تخرج الدمامل إلا في جسم منهك بمرض السكر أو الإيدز.
وبالمقابل؛ فإنَّ تغيير الواقع يتم بتغيير رصيد ما بالنفوس، وإنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والأمراض الاجتماعية في النهاية تحملها (وحدات) من الأفكار كما حملت الأمراض (الوحدات) الإمبراطورية من جرثوم وفيروس.

ولا يمكن لطفل أن يقود جملًا لولا أن الغلام يحمل من الوعي ما يفقده الجمل، ولا يمكن لأمة أن تُستعبد لولا استعدادها على نحو خفي لل العبودية، ولا يمكن لدكتاتور أن يقدر على رقبة شعب واعٍ. ولا تحط النسور إلا على الجثث. فهذا مفتاح جوهري في فهم المشاكل.

ويترتب عليه أمر هام وهو تحديد منطقة الحفر في طبقات آركيولوجيا المعرفة على حد تعبير (فوكو) الفيلسوف الفرنسي.
الغصن يتهاوى إلى الأرض في فصل الخريف بتفسخ الارتباط مع الشجرة الأم، وينفجر المرض بانهيار الجهاز المناعي، وتمرض النفس بعبادة الذات الفانية، وتتداعى الدول بالتفكك الداخلي، ولم يظهر الخراج الصهيوني لولا المرض العربي، وتتلاشى الحضارات من صفحة التاريخ بالانتحار الداخلي كما ذهب إلى ذلك حجة التاريخ (توينبي) في كتابه (دراسة التاريخ). (STUDY OF HISTORY)

وتعرض (ابواسبيه) في رسالته القيمة عن كيفية السقوط في وده العبودية، فأشار إلى أربعة أفكار رئيسية:
(سلطان العادة) وكيف أنها تحكم في السلوك على ثلاث مراحل، وكيفية (تغيير محتويات النفس) مع الوقت وانقلاب الأوضاع لتصل إلى درجة من المؤس لا يصدقها أكثر المتشائمين؛ فالفرس البري يجمع براكبه والمرؤض يتبااهي بسرجه ويفلسف بؤس العبودية.
وانَّ (أصناف الطغاة) ثلاثة.

وأخيرًا أن المجتمعات تننسق إلى العبودية بثلاث طرق:
فأمًا الطغاة فهم على أنواع: فمنهم من يمتلك الشعب عن طريق الانتخاب (المزور)، (والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم).

وعندما يريد المقارنة بينهم يرى بعض (الاختلاف)، ولكنه لا يرى (اختيارًا) بينهم، بسبب طرق الوصول إلى الحكم وأسلوبه:
(فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلاكًا طبيعياً).

أما الواقع في قبضة العبودية فهي بدورها ذات ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب:
(فهو يقينًا لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد سببين؛ أما مكرهًا، أو مخدوعًا؛ (مكرهًا) بسلاح أجنبي أو (طائفة) من مجتمعه، وأما (الخديعة) فكما حصل مع أهل صقلية عندما استبدلوا الرمضان بالنار فرفعوا (ديونيسيوس) إلى سدة الحكم

إنقاذ البلد فتسمى: (باسم القائد ثم الملك ثم المطلق) ثم ليأخذ اسم الطاغية في التاريخ (TYRAN).

وأما (تغير السلوك التدريجي)، فمن نشأ في الاستعباد يشبه من اعتاد شرب السموم فلا يؤثر فيه لدغ الثعابين، أو يشبه أهل المناطق الاسكندنافية العليا، فمن ولد في الظلام لأشهر طويلة يفاجئ بسطوع ضوء الشمس، ويظن كما يحصل لحيوان (الخلد) أنَّ الظلام هو أصل الأشياء، أو كما اعتادت الشعوب العربية على (الأحكام العرفية)، فهي لا تعرف ما هي (الحالة الدستورية)، وكل هامش خلاص ينفعه الحاكم بما فيها منحة (الديمقراطية) تأخذها الشعوب أنها هبة تصدق بها يد علياً.

وكما يقول (مكيافيلي) في كتابه (الأمين) إنَّ على الحاكم أن يعطيهم (الرحمة) بالقطارة، أما (العذاب) فيجب أن يصب من فوق رؤوسهم كالحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقام من حديد، بمعنى أن الناس متى سقطت في فخ العبودية صعب عليها جداً الخلاص من شركه.

قد يعرف الجيل الأول مارته كما ذاقه جيلنا، أما من ولد فيه فاللأغالل في أعناقهم والسلالس يسحبون، اعتادوا عليه يعتبرون أن نظم الحياة يمشي هكذا، كما في بطة ضربات القلب عند السلاحف، أو برودة الماء عند السمك. كذلك ترى المجتمعات أن (الطغيان) هو من طبيعة الأشياء.

يقول (لابواسبيه): (لنفل إذن أنَّ ما درج الإنسان عليه وتعوده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي ومنه كانت (العادة) أول أسباب العبودية كشأن الجياد الشوامس تعض الرسن بالنواخذ في البدء ثم تلهو به أخيراً وبعد أن كانت لا تقاد تستقر تحت السرج إذا هي الآن تحلى برحالها وتركبها الخيال وهي تبتخر في دروزها تقول: إنها كانت منذ البدء ملكاً لمالكها، وأن آباءها عاشت كذلك، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور، وتضرب الأمثلة لتقنع بهذا الالتزام، وبمرّ الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها).

وهنا نفهم معنى الهجرة في الإسلام، ونفهم المغزى العميق من قصة أصحاب الكهف الذين هربوا إلى كهف بارد وضئلاً بكلِّهم أن يبقى في مجتمع تبخرت منه الضمانات.

والمجتمعات الوثنية لا تحمل أي ضمانة لأي إنسان أو حيوان أو شيء في أي زمان أو مكان.

أو قصة موسى -عليه السلام-. وهو يعبر ببني إسرائيل البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

إنها نفخ اليد من وسط محنت ميت وإعلان ولادة مجتمع جديد.

إنَّ إبراهيم -عليه السلام-. كان مشروع أمة، كذلك الحال في فتية الكهف، أو عبور بني إسرائيل إلى سيناء كي تكون مدفناً جماعياً لهم لجيل كامل خلال أربعين سنة يتبعون في الأرض؛ فيخرج من أصحابهم جيل جديد لا يعرف إلا الصحراء والحرية.

إنَّ بني إسرائيل الذين خرجن من أرض فرعون لا يصلحون لحمل رسالة موسى -عليه السلام-.، بل لا بدَّ من جيل جديد لا يعرف الطغيان، ولا يستطيع العيش في ظروف الدكتاتورية.

ذكرت سابقاً أمراض المجتمع العربي الإسلامي (العشرة)، وكان في رأس القائمة (تقديس الآباء)، أو ما كررَه القرآن بتعبير: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون}، بالإضافة إلى (2) تأليه القوة، (3) واحتقار العلم، و(4) تبرئة الذات واتهام الآخرين، و(5) إجازة الغدر، و(6) ظن أن النص يعني عن الواقع أو مرض انفكاك النظرية عن الممارسة والتاريخ، و(7) الاهتمام بفضائل الجهاد بدون معرفة بشروطه وهو الخراج الذي فجر كل مشاكل العنف في المجتمع العربي، و(8) رفض المسلمين للديمقراطية مع أنها أقرب إلى الرشد من كل ما عليه واقع المسلمين السياسي اليوم(*)، و(9) وتمكن العقل الخوارقي الأسطوري في حياتنا وانحسار العقل العلمي، (10) وظنَّ أنَّ الأحكام لا تتغير بتغير الأزمان أي كأن العدل لا يمكن أن ينمو أكثر فأكثر.

ويتعلق المرض الأول - أي سلطان العادة -. بهذه الحزمة من الأمراض كسبب أساسى في رسوخ شجرة الطغيان.

ويختصر (لابواسبيه) الخلاص من الطغيان بوصفة بسيطة واضحة ليس قتلَه بل عدم طاعته: (اعقدوا العزم ألا تخدموا

تصبحوا أحراً، فما أسألكم مصادمته بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سحبت قاعدته فهو على الأرض بقوّة وزنه وحدها وإنكسر).

ويتكلّم القرآن بنفس المنطق عن جدلية الطغيان بتعبير الكلمة الطيبة والخبيثة؛ فيشبّه الاثنين بشجرتين، وعلى ما يبدو فإنَّ هذا يصلح تفسيرًا لماذا تكبر شجرة الديكتاتورية فيصل سعفها إلى أعلى من شجرة نخلة باسقة طلعاً كأنَّه رؤوس الشياطين، ولكنه نمو يحمل إمكانية سقوطها تحت ثقلها الخاص، فهي في النهاية تُجْثَتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، وبكل أسف فإنَّ هذه الوصفة النبوية لم يستند منها أحد لا إسلاميون ولا غيرهم، بل تبنّى الجميع مذهب الخوارج في قتل الحاكم بالسيف، أو مذهب الثورة الفرنسية في فصل رأس المستبد على مصلحة. تقول الرواية: إنَّ الطبع يغلب التطبع، ولكن مشرِّع اسبرطة (ليكورج) أثبت عكس هذا بالتجربة، حيث عمد إلى تربية كلبين خرجا من بطن واحدة، جعل الأول يسمّن في المطبخ، والثاني يجري في الحقول حتى إذا كبرا بما فيه الكفاية جاء بهما إلى السوق ثم وضع أمامهما وعاء من الحساء بجانب أرنب وأطلق الكلبين، فإذا أحدهما يلعق الوعاء كسولاً رخوا، وأما الثاني فيضرُب في البراري يلاحق الأرنب المذعور. قال ليكورج يعلق على المنظر المثير: ومع هذا فهما أخوان. إنَّ التربية قد تهبط بالإنسان إلى أسفل سافلين فتمسخ الإنسان إلى شكل القردة والخنازير، أو قد ترتفع به إلى أعلى عليين فتسجد له الملائكة أجمعون. وأنَّ رصيد السلطة هي من الجهل أو المعرفة ولم يكن للشيطان سلطان على الناس إلا من اتبّعه من الغاوين.

(*) هي أقرب إلى الرشد على اعتبار المقارنة بينها وبين الأنظمة الديكتاتورية الاستبدادية التي حكمت الدول العربية، وإنما فالديمقراطية ليست بديل لأن تكون نظام حكم يرتضيه المسلمين ويسعون لإيجاده بعد زوال الأنظمة الديكتاتوري، وإنما النظام الإسلامي (نور سوريا).

المصدر: الإسلام اليوم

المصادر: